الطبعة الثانية
2015م - 1436هـ

مغامرات شارلوك هولمز

The Boscombe Valley Mystery

لغز وادي بوسكومب

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سليمان حسون

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 2262422 11 00963
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com
أشرف على التنفيذ الفني والطباعي دار الحافظ
daralhafez.net

4

مغامرات شارلوك هولمز

The Boscombe Valley Mystery

لغز وادي بوسكومب

تأليف: آرثر كونان دويل

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند
تشرين الأول 1891

ترجمة: سليمان حسون

مراجعة: لينا حجازي

مُقدِّمةٌ

تفوَّقت شخصية شارلوك هولمز على شهرة مخترعها سير آرثر كونان دويل وتجاوزت شهرتها ليس فقط لندن والجزيرة البريطانية، بل بلغت أقاصي العالم مع ترجمة أعمال ومغامرات هولمز إلى كل لغات العالم تقريباً. فلم يعد أحد من الشَّبان أو الشَّابات إلا ويعرف من هو ذلك المحقق اللامع الذّكاء الذي يعير انتباهاً إلى أدق التَّفاصيل عندما يضع قضية ما تحت مجهر فحصه الدَّقيق. ومن منا لا يذكر براعة هولمز في فك طلاسم أعقد الألغاز وأشدها غموضاً بطريقة تحليله المنطقية الشَّهيرة. تعتبر شخصية هولمز غير الحقيقية طبعاً واحدةً من أكثر الشَّخصيات تأثيراً في القراء خلال القرن العشرين نظراً لمخاطبتها عناصر أساسية في شخصية أي إنسان لتحفيز قدراته

العقليـة، وتفكـيره مـن أجـل الوصـول إلى حـل كل لغـز اشـتركت فيـه. وكأنَّهـا (أي شـخصية هولمز) كانـت تحث القـارئ دومـاً وتحفـزه للوصـول إلى الحقيقـة، أو حـل اللّغـز المطروح بشـكلٍ يجعل القـارئ يضطر لاستخدام كل ملكاته الفكريَّـة والعقليـة للوصـول مـع هولمز وواطسـون إلى حقيقة الأمـر، أو حتَّى أن يسـبقهما في التَّوصل للحقيقـة. الطَّريف في شـخصية هولمـز أنَّهـا وعـلى الرغم مـن أنَّها تقـدِّم لنا شـخصاً مـن لنـدن في نهايـة القـرن التَّاسـع عـشر إلا أنَّهـا مـن خـلال طريقـة تعاملهـا مـع مـا حولهـا ومـن حولهـا تبـدو شـخصية أكثـر معـاصرة وكأنَّ كونـان دويـل نجـح بتحويلهـا إلى شخصية خارج إطار زمان محدد.

الأهـم مـن شـخصية هولمـز التـي تتسـيَّد كل قصـص كونـان دويل هي شـخصيَّة كاتبهـا التي تشي بشـخص عاش حياتـه كتجربـةٍ عظيمـةٍ تمكَّـن إلى أقصى حـد في تصويرها من خـلال شـخصية هولمـز، أحيانـاً وشـخصية د. واطسـون بصـورةٍ أكـبر وأكثر جـلاء. كما تمكّـن الفنان سـيدني باجيت مـن ابتـداع صـورة نمطيـة محـدَّدة ومشـوِّقة للسـيد هولمـز في

أذهاننـا، مـع مواكبـة قصـص كونان دويـل برسـومات جميلة جعلـت صـورة هولمـز المرتـدي لقبعتـه المميـزة. وغليونـه الجميل، صورة لا تمحى من أذهاننا.

آرثر كونان دويل

مؤلف شخصيَّة «شارلوك هولمز»

ولـد الطبيـب والروائـي البريطـاني السـير آرثـر كونـان دويل في أدنبرة باسـكتلندا سـنة 1859، واشتهرت الشَّخصية التـي ابتدعهـا «شـارلوك هولمـز» لرجـل التَّحـري الذَّكـي القـادر على فـك ألغاز الجرائـم، معتمداً على امكاناتـه الذِّهنية وقـوة الملاحظـة، واتبـاع طريقـة الملاحظـة والتَّحليـل والاسـتنتاج بالاعتـماد عـلى العلـم والمنطـق، هذه الشَّـخصية التي أصبحت أكثر شهرة من مبتدعها.

وقـد مُثلـت العديـد مـن رواياتـه وقصصـه، وتحوَّلت إلى أفـلام سـينمائية وأفـلام كارتونية. وقد هجر السـير آرثر دويل مهنـة الطّب بعد أن مارسـها ثماني سـنوات، واتَّجـه إلى الأدب، واسـتطاع أن يبـدع فيه. بـدأ حياته الأدبية سـنة 1887 بكتابة القصـص القصيرة للمجـلات بهـدف زيـادة دخلـه. يقـول

النَّاقـد كريسـتوفر مورلي عـن شـارلوك هولمز: لم يحـدث أبداً أن نالـت شـخصيَّة روائيَّـة هـذا الحـظ مـن القدرة عـلى امتاع القـرَّاء والالتصـاق بهـم بمثـل مـا نالـت شـخصية شـارلوك هولـمز. فالسـير آرثـر دويـل بعـد أن مـارس مهنـة الطّـب في عيادتـه التـي لم يكـن يزورهـا إلا النُّـزر اليسـير مـن المـرضى، كان يجـد أوقاتـاً كبـيرة من الفـراغ، شـغلها بكتابـة القصص القصيرة، والتي لم تنل حظاً من النَّجاح في البداية.

إلا أنَّـه وبعـد نـشر روايته الأولى عن شـارلوك هولمز سـنة 1887 أخـذ نجمـه في الصّعـود. وبلغـت مجمـوع القصـص والرِّوايـات التـي كتبهـا السـير آرثـر دويـل وظهـرت فيهـا شـخصية شـارلوك هولـمز حـوالي 60 عمـلاً، جُلَّهـا مـن القصـص القصـيرة ، حتَّى أصبح السـير آرثر دويـل من أكثر كتَّاب القصَّة القصيرة دخلاً في عصره.

ونظـراً لجهـوده في دعـم الحكومـة البريطانيـة في حـرب البوير «1899 – 1902» رقِّيَ إلى رتبة فارس سنة 1902.

شارلوك هولمز

شخصيَّة خياليَّة لمحقِّق من أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطَّبيب الاسكتلندي سير آرثر كونان دويل، ظهرت الشَّخصية لأول مرة في 1887، واشتهرت الشَّخصية بمهارتها الشَّديدة في استخدام المنطق والمراقبة لحل القضايا، وقد يكون هو أشهر محقِّق خيالي في العالم، وهو بالفعل أحد أكثر الشَّخصيَّات الأدبيَّة المعروفة بشكلٍ عالمي.

كتب كونان دويل أربع روايات، وستاً وخمسين قصَّة قصيرة من بطولة هولمز، رويت جميعها من قبل صديقه الحميم وكاتب سيرته دكتور جون هـ. واطسون، باستثناء قصَّتين رواهما هولمز بنفسه، واثنتين رويتا بضمير الغائب.

وصف شارلوك هولمز نفسه بأنَّه محقِّقٌ استشاري خبير، يتم استدعاؤه لحل القضايا التي يثبُت أنَّها صعبة الحل جدَّاً على المحققين الرَّسميين (النَّمطيين). وتُخبر القصص أنَّه كان قادراً في العديد من المناسبات على حل القضايا بدون مُغادرة بيته، دون أن تهتم القصص بتقديم الكثير من

هـذه القضايـا الصَّغـيرة، مُركِـزَةً عـلى القضايـا المشـوِّقة التي تتطلَّـب منـه القيام بتحريك سـاقيه فعـلاً. يتخصَّص هولمز في حـل القضايـا الغريبـة مسـتخدماً قـواه الاسـتثنائية في المراقبة والتَّحليل المنطقي.

يُصوَّر هولمز بشـكلٍ دائم في الوسـائط الإعلاميـة المختلفة مرتديـاً قبعـة صائد الأيائـل وعباءته، مُدخناً غليوناً، وممسـكاً بعدسـةٍ مكـبرة. ويوصـف هولـز بأنَّـه سـيدٌ إنجليـزيٍ مـن الطِّـراز الفيكتـوري، طويـلٌ ورشـيقٌ، لـه عينـان حادَّتـان دقيقتـان، وأنـف معقـوف. بالرُّغـم مـن قامتـه النَّحيلـة فـإنَّ قدراتـه البدنيَّـة عاليـة. هـو ملاكـمٌ ومبـارزٌ ماهرٌ، وعـادة ما يتغلَّـب عـلى خصومـه في المـرات القليلـة نسـبيَّاً التـي اضطر فيهـا للاشـتباك جسـديَّاً. وفي مغامـرة إكليـل العقيـق يقـول هولـز أنَّـه: (يمتلك قوة اسـتثنائية في أصابعه). أمَّـا في مغامرة المنـزل الفـارغ فيذكـر أنَّـه: (يمتلـك القليل مـن المعرفة حول المصارعـة اليابانيـة). كان يعيـش هولـز في لندن شـارع بيكر عنوان 221 B.

في أوَّل قصصـه، دراسـة بالقرمـزي، قُدِمَـت بعـض

المعلومـات عن خلفيـة هولمـز. قُـدِم في 4 آذار 1881 على أنَّه طالـب كيميـاء مسـتقل، لـه مجموعةٌ واسـعةٌ مـن الاهتمامات الجانبيـة، وتقريبـاً؛ فـإنَّ كل هـذه الاهتمامات تصـب في مجرى مسـاعدته ليصبـح خارقـاً في حـل الجرائم. في مغامـرة أخرى مبكِّـرة بعنـوان مغامـرة غلوريـا سـكوت، تتضـح الأسـباب التـي دعت هولمـز إلى العمـل كمحقق خـاص؛ امتـداح والد زميله في الكلية الشَّديد لمواهبه وقدراته الاستنتاجيَّة.

في مغامـرة المترجـم الإغريقـي، يقـول هولمـز: أنَّ جدَّتـه كانت شـقيقة الرَّسـام الفرنسي فيرنو. وفي دراسـة بالقرمزي، يضع دكتور واطسون تقييماً لمهارات شارلوك:

ويعتـبر شـارلوك هولمـز أيضـاً مُحلِّـل شـفرات كـفء، ويقـول لواطسـون: أنا متآلف مـع كل أشـكال الكتابة السريَّة بشـكل جيـد، وأنـا نفسي مؤلـف كتـاب ثانـوي حـول الموضـوع، حللـت فيـه مائـة وسـتين شـفرة منفصلـة. حُلت إحـدى الشَّـفرات في مغامـرة الرِّجـال الرَّاقصـين، التـي استخدمت سلسلة من الأشكال الأوليَّة.

كـما أظهر هولمـز نفسـه كأسـتاذ في التَّنكر بعـد أن تنكر في

أشكال مختلفة خلال مغامرات: بحار (علامة الأربعة) وسائس خيل، ورجل دين (فضيحة في بوهيميا)، ومدمن أفيون (الرَّجل ذو الشفة المقلوبة)، ومتبطل عادي (مغامرة إكليل العقيق)، وكاهن إيطالي عجوز (مغامرة المشكلة الأخيرة)، وبائع كتب (مغامرة البيت الفارغ)، وعامل تمديدات صحيَّة أو سبَّاك (مغامرة تشارلز أغسطس ميلفيرتون)، ورجل محتضر (مغامرة المحقِّق المحتضر)، وأخيراً متسول كلب آل باسكرفيل.

ويمكن اعتبار هولمز رائداً في علم الأدلَّة الجنائيَّة الحديث لاستخدامه هذا العلم في قضاياه، مثل: تعرفه على الفروقات بين أنواع الآلات الكاتبة لفضح الاحتيال (قضية هوية). وتوصله إلى جريمة باكتشافه قطعتين من البقايا البشرية (مغامرة صندوق الورق). وملاحظته لبقايا بارود على الضحية (مغامرة ميدان ريغاتي). وملاحظته نوع الرَّصاص المستخدَم في جريمتين (مغامرة البيت الفارغ). واستخدامه بصمة الأصابع لتحرير رجل بريء (مغامرة باني نوروود).

عاش شارلوك هولمز تاريخياً، في B 221 شارع بيكر، لندن منذ 1881، حيث أمضى العديد من سنواته المهنية مع صديقه الحميم دكتور واطسون، الذي تشارك الشقة معه قبل زواج واطسون في 1890. وكانت تشرف على صيانة الشقة والاهتمام بها السيدة مارثا هدسون، مالكة البناية. وقد وصف دويل الحي الذي يعيشان فيه بدقة، حتَّى أنَّ الكثيرين من القرَّاء زاروا شارع بيكر للبحث عن العنوان الخيالي.

ومن أبرز الشَّخصيات التي ظهرت في حياة شارلوك هولمز:

د. واطسون

واطسون؛ صديق هولمز الحميم، وكاتب سيرته الذَّاتيَّة، كما أنَّه يقوم بتسجيل معظم قضايا هولمز. وفي القصص الأخيرة ينتقد هولمز واطسون دائماً لأنَّه يروي القصص بشكلٍ مثيرٍ، مبتعداً عن الطَّريقة الموضوعية والمفصَّلة للتقارير التي تركز على ما يُسميه هولمز (العلم المحض). واطسون، بالمقابل، له سمعة مبررة بعض الشَّيء

كرجل يميل إلى النّساء، يتكلَّم بحب عن بعض النِّساء، وفي بعض القصص الطَّويلة كثيراً ما يركِّز على جمال امرأة معيَّنة، وفي النِّهاية فإنَّه يتزوَّج واحدة بالفعل. ماري مورستان من رواية علامة الأربعة.

جيمس موريارتي
«عدو شارلوك هولمز الأزلي»

البروفيسور جيمس موريارتي (نابليون الجريمة)، هو في الأساس معلِّم الرياضيات الخصوصي لهولمز، كما أشير لذلك أيضاً في عمل بارينغ-غولد. وهو المشكلة الأساسية في العديد من قضايا شارلوك هولمز.

سقط مع هولمز أثناء صراعهما في شلالات راينباخ. ونوى كونان دويل أن تكون (المشكلة النِّهائية) التي حدث فيها ذلك، هي آخر قصة يكتبها عن هولمز، لكنَّ الرَّسائل الكثيرة التي استلمها مطالبةً بعودة هولمز أقنعته بالاستمرار في كتابة القصص. وفي (مغامرة المنزل الفارغ) أخبر كونان دويل أنَّ موريارتي وحده من سقط في الشَّلال، وأنَّ هولمز جعل العالم يعتقد بأنَّه مات أيضاً ليراوغ أتباع موريارتي.

آيرين أدلر

المـرأة الوحيـدة التـي أبـدى هولمـز اهتمامـاً بهـا. وتبعـاً لما قالـه واطسـون، فـإنَّ هولمـز كان يشـير إليهـا دائـماً باعتبارها (المـرأة). بالرُّغـم مـن أنَّ هولمـز نفسـه لم يسـتخدم هـذا المصطلـح، عـلى أنَّه ذكر اسـمها الفعـلي عدَّة مـرات في قضايا أخـرى. وهي أيضـاً واحدة من النِّسـاء القلائـل اللائي ذُكرن في قصـص شـارلوك هولمـز، بالرُّغم مـن أنَّها ظهـرت فقط في قصـة فضيحـة في بوهيميـا، إلا أنَّهـا غالبـاً مـا اعتـبرت المـرأة الوحيـدة التـي كـسرت تحفُّـظ هولمـز. وهـي المـرأة الوحيـدة التي هزمت هولمز في لغز.

مايكروفت هولمز

الشَّـقيق الأكـبر لهولمـز، الذي يمتلـك قوى تحليليـة تفوق حتَّـى تلـك التـي يتمتَّـع بهـا شـقيقه الأصغـر. وبالرُّغـم مـن ذلـك فـإنَّ مايكروفـت غـير قـادر عـلى أداء عمل تحرٍ مشـابه لعمـل شـارلوك، لأنَّـه لا ينـوي بـذل أي جهـد جسـدي ضروري لحل القضايا.

ليس لديه طموح أو طاقة، ولن يتزحزح عن هذا حتَّى ليثبت حلوله الخاصَّة، ويُفضِل أن يُعتبر حله خاطئاً على أن يتحمَّل عناء إثبات صحة كلامه. كثيراً ما أخذت مُعضلاتي إليه، وحصلت منه على شروحات ثبت صحتها فيما بعد، غير أنَّه كان دائماً غير قادر على حل النّقاط العمليَّة.

لغز وادي بوسكومب

كنا جالسين لأتناول الفطور أنا وزوجتي ذات صباح عندما جاء الخادم يحمل برقيّة لي من شارلوك هولمز.

كانت الرِّسالة تقول:

هل يمكنك التّفرغ ليومين أو أكثر؟

لقد تلقيت للتو اتصالاً من غرب انكلترا يخبرني عن مأساة وادي بوسكومب.

يُسعدني أن ترافقني بالرحلة إلى هناك، فالجو جميلٌ هناك والمناظر الطَّبيعية رائعة.

إذا أردت الذّهاب فالانطلاق سيكون من محطّة بادنغتون حوالي الحادية عشر والربع.

لقد منحتني تجربتي في أفغانستان فوائد كثيرةً، حيث

جعلتني مثلاً جاهزاً دوماً للسَّفر في أي لحظة، وأن أكون مستعدَّاً دوماً لمثل أي أمر طارئ.

لم تكن متطلّباتي كثيرة، بحيث ركبت العربة بزمنٍ بسيط، وكانت حقيبتي معي في طريقي إلى محطّة بادنغتون.

عندما وصلتُ هناك رأيت شارلوك هولمز يروح ويجيء في المحطّة.

وما أن وقع بصره عليّ حتّى قال مُرحِباً: يَسرُني أنّك أتيتَ يا عزيزي واطسون، فأنا أُفضِّل أن أرافق شخصاً يُعتمد عليه. هلّا حجزت المقعدين كي أحضر بطاقاتنا؟

وسألني عندما عاد: هل سمعتَ شيئاً عن القضيّة؟

- لا شيء... لأنِّي لم أقرأ الصُّحف منذ أيّام.

- الواقع أنّ صحف لندن لم تعرض كثيراً من التّفصيل المتعلِّقة بالقضية.

لقد حاولتُ الحصول على تفاصيل أكثر من الصحف لكنِّي لم أفلح بالعثور على ما هو مهم. لكنَّها على الرغم من ذلك تبدو واحدة من القضايا السَّهلة والصّعبة في آن.



- لكن هذا الكلام متناقضٌ نوعاً ما.

- متناقض، أجل لكنَّه صحيح. فكلّما كانت الجريمة عادية ومبتذلة، كان حلها أصعب. لقد توجهّت أصابع الاتهام في هذه القضيّة إلى ابن الضّحيّة.

- هناك جريمة قتل إذن؟

- على الأرجح. لن أسلّم بأي شيء ما لم أره بعيني وأتأكد منه. سوف أشرح لك الوقائع.

إنّ وادي بوسكومب عبارة عن مقاطعة قريبة من هيرفورد شاير، حيث يعتبر السيد جون تيرنر أكبر ملَّاكي الأراضي بعدما جنى ثروته من استراليا وعاد قبل سنوات إلى البلاد.

لقد تخلَّى الرَّجل عن إحدى مزارعه لصالح السيد تشارلز ماكارثي الذي كان هو بدوره في استراليا أيضاً.

وبما أنَّ تيرنر هو الأغنى، فقد استأجر ماكارثي الأرض منه، لكنَّه بقي اجتماعيَّاً في نفس مرتبة صديقه تيرنر.

كان لدى ماكارثي ابن وحيد يبلغ الثّامنة عشر من عمره، كما كان لدى تيرنر ابنة وحيدة بنفس السِّن.

كان أيضاً كلا الرَّجلين أرملان. ويبدو أنَّهما تحاشيا مجتمع العائلات الانكليزيَّة من الذين يقطنون بالجوار، واختارا حياة بحدود اجتماعية ضيِّقة وبعيداً عن الأضواء.

كان لدى ماكارثي خادمان، رجل وامرأة. أمَّا تيرنر فكان لديه ستّة على الأقل.

هذا كل ما يتعلّق بالأسرتين. والآن إليك الأحداث والوقائع:

في الثّالث من حزيران، أي يوم الاثنين الماضي، غادر ماكارثي منزله في هاثيرلي قرابة الثّالثة بعد الظهر واتّجه إلى بحيرة بوسكومب وهي بحيرة صغيرة تحمل اسم الوادي.

كان ماكارثي قد أعلم الخادم بضرورة الاستعجال، لأنّ لديه موعداً هامّاً في الثّالثة. لكنّه لم يعد حياً من ذلك الموعد.

تبعد مزرعة هاثيرلي عن بحيرة بوسكومب نحو ربع ميل. وقد شاهده شخصان يعبر هذا الطّريق.

ويجمع الشّاهدان على أنّه كان بمفرده، إلا أنّ حارس الطّرائد يقول أنّه شاهد ابن السيد ماكارثي يمر من هناك بعد بضع دقائق على مرور الوالد، سالكاً نفس الاتجاه

وكان يحمل سلاحاً. لم يظن الحارس بسوء ولم يفكِّر بالقضية حتّى سمع مساءً نبأ المأساة التي وقعت.

هناك كثيرٌ من الأشجار التي تحيط بكثافة بالبحيرة مع وجود فسحة صغيرة من العشب والقصب عند الأطراف. لقد صادف أن كانت بيشنس موران، وهي فتاةٌ في الرّابعة عشرة من العمر وابنة حارس عقار وادي بوسكومب، تقطف أزهاراً في إحدى الغابات هناك.

وقد شاهدت عند طرف الغابة قرب البحيرة السيد ماكارثي وابنه يتجادلان بعنف على ما يبدو.

هربت الفتاة لخوفها من أجواء العنف في حديث الأب وابنه، وهُرعت إلى أمِّها تخبرها بما حدث.

لكن سرعان ماظهر فجأةً ماكارثي الابن يطلب المساعدة زاعماً أنّه عثر على والده ميتاً في الغابة.

لقد بدا متوتراً جدّاً ولا يحمل معه أي سلاح أو حتّى قبّعته، فيما الدّم يلطِّخ الكم الأيمن لقميصه.

وعندما تبعوه إلى الغابة وجدوا أباهُ جثّةً هامدةً مُمدّدة على العشب قرب البحيرة.



كان واضحاً أنّ رأسه تعرّض لضرباتٍ عديدةٍ من سلاحٍ ثقيل لكنّه ليس حاداً.

كما تم العثور على سلاح الابن على بعد خطوات من جثّة الأب، فكان من الطّبيعي في ظل هذه الظُّروف أن يتم إلقاء القبض على الابن فوراً واتّهامه بارتكاب جريمة القتل العمد يوم الثّلاثاء، ليمثل في يوم الأربعاء أمام محكمة روس التي أحالت القضية إلى المحكمة العليا.

هذه باختصار أبرز الأحداث والوقائع كما تم عرضها من قبل المحقِّق والنيابة العامّة.

- قلتُ معلِّقاً: من الواضح أنَّ كل الوقائع الظَّرفيّة والإثباتات تُشير إلى شخص واحد.

- إنّ الإثباتات الظّرفيّة مخادعة للغاية في هذه القضيّة. إنّها تُشير ظاهريّاً إلى أمرٍ معيّن، لكن إذا نظرنا إليها من زاويّةٍ مختلفةٍ نراها تدل على شخصٍ آخر وبالتّالي تتجه الشكوك باتّجاهٍ مخالف تماماً للاتّجاه الذي تسلكه الآن.

لكن العديد من الجيران، لاسيَّما الآنسة تيرنر، مقتنعون تماماً ببراءة الشّاب. وقد كلفوا المفتِّش ليستراد البحث في

القضيّة، إلا أنّه حوَّل القضيَّة لي، ليقطع رجلان مثلنا على متن قطار يسير بسرعة خمسين ميلاً في السّاعة، بدل أن يكونا جالسان يتناولان فطورهما بهدوءٍ في المنزل.

قلت: أخشى ألا تكون الوقائع واضحةً جداً فلا نحقّق أي تقدّم في هذه القضية.

أجاب ضاحكاً: ما من شيء أكثر خداعاً من الوقائع الواضحة جدّاً. لقد أثارت نقطة أو اثنتين اهتمامي في التّحقيق الذي جرى.

- ما هي؟

- يبدو أنّه لم يتم توقيف الشّاب مباشرة، بل بعد عودته إلى مزرعة هاثيرلي. وعندما أبلغه المفتّش أنَّه رهن الاعتقال، أجاب أنّه توقّع هذا. فكان من الطّبيعي أن تُلغي هذه الملاحظة أي شك من جهة الإدعاء بأنّ الشّاب بريء.

- هتفتُ متعجباً: لكن هذا اعترافٌ صريح ويجب أن يأخذوا به.

- لا إنّه ليس اعترافاً لأنّه قال بعد ذلك مباشرة أنّه بريء. كما أنّ اعترافه الصّريح بالوضع القائم يعني أنّه

شخص بريء أو شخص يتمتّع بأقصى درجات ضبط النّفس والتماسك.

هزّزت رأسي وقلتُ مُضيفاً: لقد أُعدم الكثيرون بسبب أدلة أقل شأناً ممّا تحويه هذه القضية.

- صحيح وكثيرون أُعدموا ظلماً أيضاً.

- إذن برأيك ما هو تفسير الشاب لما حدث؟

- لا يشجع برأيي كثيراً من يؤيدوه رغم وجود نقطة أو نقطتين مهمتين. ها هو اقرأه بنفسك.

تناول هولمز من مجموعة أوراقه نسخة من صحيفة هيرفورد شاير، وأشار إلى الفقرة التي روى فيها الشّاب البائس ما حدث.

قال: أمضيتُ ثلاثة أيام في بريستول بعيداً عن المنزل، وكنت قد عدت لتوي صباح يوم الاثنين الماضي الواقع في الثالث من حزيران.

لم يكن والدي في المنزل عندما وصلت وأعلمتني الخادمة أنّه ذهب إلى روس مع السّائس جون كوب.

بعد وقتٍ قصيرٍ على عودتي، سمعت صوت عجلات مركبة في الباحة الخارجيّة.

نظرتُ عبر النّافذة فرأيته ينزل من العربة ويسرع خارج الباحة دون أن أعرف بأي اتجاهٍ ذهب.

عندها تناولتُ سلاحي، واتّجهتُ إلى بحيرة بوسكومب لتفقُّد مكان تربية الأرانب في الجهة الأخرى من البحيرة.

التقيتُ في طريقي بحارس الطَّرائد ويليام كروديرِ كما أشار في شهادته، لكنّي خلافاً لما قاله، لم أكن أتبع والدي لأني لم أكن أعرف أنّه يسير أمامي.

وعلى مسافة مائة ياردة من البحيرة، سمعت صوتاً يصرخ قائلاً: (كوي!) وهي إشارة بيني وبين والدي.

هُرعتُ إلى حيث مصدر الصّوت وإذا به واقفٌ عند البحيرة. تفاجأ لظهوري هناك وأخذ يسألني بغضبٍ عن سبب قدومي إلى هناك.

ثمّ تطوَّر الحوار بشكلٍ حاد، وكاد يتحوَّل إلى صراع جسدي بسبب طبع والدي الحاد. عندها قرّرت الانسحاب والعودة إلى المزرعة كي لا تتفاقم الأمور.

وما أن قطعت مائة وخمسين ياردة، حتَّى سمعتُ صرخةً غريبةً أتت من خلفي وجعلتني أعود إلى حيث كان والدي.

وعندما وصلتُ وجدتُ أبي يلفظ أنفاسَه الأخيرة على الأرض، وكان هناك جرحٌ بليغٌ في رأسه.

رميتُ سلاحي وأخذته بين ذراعي، لكنَّه سرعان مافارق الحياة.

ركعتُ بالقرب منه لعدة دقائق مصدوماً، ثمَّ هُرعت إلى حارس عقار السيد تيرنر طلباً للنّجدة لقرب منزله من مكان الحادث.

عندما رجعت لم أر أحداً قرب والدي، ولست أدري من أين جاءت تلك الإصابة.

صحيح أن والدي لم يكن يتمتَّع بشعبيّةٍ كبيرةٍ بسبب طبعه البارد، لكنّه لم يكن شخصاً لديه أعداء على حد علمي. هذا كل ما أعرفه.

بعد ذلك جرى حوار بين المحقق والشّاهد، فضّل خلاله الشّاهد عدم الإجابة على الكثير من الأسئلة.



فقلتُ معلِّقاً على الموضوع: لقد كان المفتش محقاً بالسؤال عن مناداة الأب ابنه قبل أن يعلم بعودته.

كما رفض الابن إعطاء أي تفاصيل عن الحديث الذي دار بينهما والذي كاد أن يتحول إلى شجار.

إنّ كل ذلك يلعب دوراً سيئاً في موقف الابن كمتّهم.

ضحك هولمز بلطف وتمدَّد على مقعده في القطار قائلاً: أمّا بالنسبة لي، فأنا أنظر إلى الموضوع من زاويةٍ مختلفةٍ وأعتبر ما قاله الشّاب صحيحاً.

وسوف نرى لاحقاً إلى أين ستقودنا هذه النّظرية.

لن أقول المزيد في القضية بعد الآن حتّى نصل إلى ساحة الجريمة.

سوف نتناول الغداء في سويندن التي سنصل إليها بعد عشرين دقيقة.

وصلنا في الرابعة تقريباً بعد أن عبرنا وادي ستراود الجميل، مروراً إلى بلدة روس الريفية الرائعة، وهناك وجدنا بانتظارنا المفتِّش ليستراد من شرطة سكوتلانديارد.



جلسنا نتناول الشاي، فبادر ليستراد إلى القول: لا شك أنَّك توصلت إلى استنتاجاتك هذه بعد مطالعة الصحف، لكن قل لي، من يستطيع رفض تقديم خدمة لامرأة؟

لقد سمعتْ عنك وهي تريد معرفة رأيك بالموضوع، رغم أني أخبرتها مراراً وتكراراً أنّك لن تستطيع أن تفعل أكثر مما فعلتُ أنا. ها قد وصلتْ عربتها.

وما أن أتمّ كلامه حتّى دخلت القاعة شابةٌ حسناء من أجمل الفتيات اللّواتي رأيتهنّ بحياتي. وحالما رأتنا صرخت وهي تنقِّل نظرها بيننا: أنا سعيدة لقدومك.

إنّي متأكدة من براءة جيمس.

أنا أعرفه منذ نعومة أظافرنا وأعلم كل الإيجابيات والسّلبيات في شخصيته أكثر من أي شخصٍ آخر.

إنَّه شخصٌ رقيقٌ ولطيف لا يستطيع إيذاء حشرة.

ومن يعرفه حق المعرفة يُدرك تماماً أنَّ التّهمة الموجهة إليه باطلة.

أجاب شارلوك هولمز: أتمنّى أن نتمكّن من تبرئة ساحته يا آنسة تيرنر. أعدك أن أبذل ما بوسعي في هذا الأمر.

– لكنّكَ اطَّلعت على الأدلة والبراهين، أليس كذلك؟ فهل توصّلت لاستنتاجٍ ما؟ هل توصّلتَ إلى ما يقود إلى إثبات براءة جيمس؟ هل هناك أي أمل في هذا؟ ألا تعتقد مثلي أنّه بريء؟

– أظنُّ أنّ هذا الاحتمال هو الأكثر ترجيحاً.

عندما سمعت منه ذلك، صرخت وهي تميل رأسها إلى الخلف ناظرةً باتجاه ليستراد: أترى! هل سمعت ما قاله؟! هناك بصيص أمل!



– أخشى أن يكون زميلي قد تعجّل باستنتاجاته.

– لكنّه على حق. أمّا بشأن الشجار بين جيمس ووالده، فأنا واثقةٌ من أنّه لم يشأ الإفصاح عن مضمونه للمحقِّق لأنَّ الأمر يتعلّق بي أنا.

وهنا سألها هولمز: ما الذي تعنيه بهذا الكلام؟

– يجب أن لا أخفي شيئاً بعد الآن. لطالما كان هناك خلاف بين جيمس ووالده بشأني، فالسيد ماكارثي كان حريص على أن أتزوج من جيمس لكنّي وجيمس تربطنا علاقة أخوية ونتعامل مع بعضنا كشقيقين، كما أنّه لا يزال شاباً ولم يكتسب خبرة الحياة بعد، وطبعاً لم يكن يريد الإقدام على الزواج دون أن يكون قد أصبح مُهيَّئاً لذلك بشكلٍ جيِّد.

لذلك كانا يتشاجران دوماً حول هذا الموضوع، ولا شك أنّ تلك المرّة الأخيرة كانت إحدى المشاجرات حول ذات الموضوع.

سأل هولمز مجدّداً: وماذا عن والدك؟ هل كان يفضِّل هذا الزواج؟

- لا... لقد عارض هذا الزواج من جانبه. لم يكن أحد مصر على هذا الزواج سوى السيد ماكارثي.

- شكراً لك يا آنستي على هذه المعلومات. هل يمكن أن ترتبي لي لقاء مع والدكِ غداً؟

- أخشى ألا يسمح لي الطّبيب بذلك اللقاء.

- الطّبيب؟

- نعم، فصحة والدي بتراجع مستمر منذ سنوات وقد أتعبته هذه المأساة التي حدثت كثيراً، خاصّةً أنَّ السيد ماكارثي هو الشّخص الوحيد الذي عرف والدي منذ زمنٍ بعيدٍ حينما كانوا معاً في فيكتوريا، أستراليا.

- صحيح، فيكتوريا! هذه نقطة مهمة.

- نعم في المناجم.

- بالضّبط، حيث جنى السيد تيرنر ثروته على ما أظن.

- تماماً.

- شكراً يا آنسة تيرنر. لقد قدَّمتِ لنا مساعدة كبيرة.

- هل يمكنك أن تخبرني بكل التّطورات غداً؟ لا شك

أنّـك ستزور جيمس في السجن. إذن أرجوك أن تخبره يا سيد هولمز أنّي واثقةٌ من براءته.

- سأفعل يا آنسة تيرنر.

- يجب أن أغادر الآن، فحالة والدي الصحيّة سيئةٌ جداً. أستودعكم الله وأطلب منه أن يساعدكم.

توجهت الآنسة تيرنر إلى خارج القاعة واختفت بنفس الطريقة التي ظهرت بها، وسمعنا صوت عجلات العربة التي تقلها وهي تبتعد ماضيةً في طريقها.

قال ليستراد بعد أن ساد الصّمت لدقائق إثر مغادرة الآنسة تيرنر: أنا خجل مما فعلته يا هولمز!

لماذا منحتَ الفتاة المسكينة آمالاً مزيفة؟!

أنا لا أقول أنّي صاحب إحساسٍ مرهف لكنّك تصرّفت بشكلٍ سيِّء للغاية بل يكاد يكون تصرّفك وحشي تجاه هذه الفتاة المسكينة ومنحتها أملاً زائفاً ببراءة جيمس.

أجاب هولمز: ألا تعرف لماذا؟ ببساطة لأنّ لدي أمل بتبرئة جيمس ماكارثي.

والآن هل حصلت على تصريح لزيارته في السجن؟

- نعم تصريح لي ولك فقط.

- هل لدينا متّسع من الوقت لأخذ رحلة القطار إلى هيرفورد ومقابلته الليلة؟

- نعم.

- حسناً إذن، لنفعل ذلك. هيا بنا. أخشى يا واطسون أنّك ستشعر بقليلٍ من الملل، لكني لن أتغيّب أكثر من ساعتين.



رافقتهما إلى محطّة القطار وبعد وداعهما أخذتُ أتجوّل في شوارع البلدة الصّغيرة حتّى عدت في النّهاية إلى الفندق، حيث استلقيت على الأريكة وحاولت تسلية نفسي بقراءة رواية.

لكنّ تفكيري بقي ينتقل باستمرار بين الخيال والواقع. فإذا افترضنا أنّ قصة ذلك الشّاب البائس صحيحة، ما الذي حدث في الفترة بين تركه لأبيه وعودته إليه جانب البحيرة بعد أن سمع الصرخة؟

لاشك أنّ أمراً رهيباً حدث في غيابه، فما هو ذلك الأمر؟

وفكّرتُ بأنّي يجب أن أستفيد من معرفتي الطبية لمعرفة دلالة وطبيعة إصابة الأب القاتلة.

كانت مجلة البلدة تتضمن تقريراً موسعاً وحرفياً عن الموضوع، يحتوي على شهادة الجرّاح الذي فحص الجثّة، وقد جاء بشهادته أنّ العظمة الجدارية الثّالثة اليسرى في المنطقة الخلفية من الرأس والنّصف الأيسر للعظمة القذالية قد تم كسرهما جراء ضربةٍ قويّةٍ جداً من سلاح غير حاد.

حاولت تحديد الموقع على رأسي، فاتّضح لي أنّه تلقّى الضربة من الخلف وهذا سيفيد المتهم كثيراً كونه كان بمواجهة والده عندما كانا يتجادلان.

لكن ماذا لو أنّ العجوز كان قد التفت مشيحاً بوجهه عن ابنه قبل أن يضربه؟

بعد ذلك قرّرت أن ألفت انتباه هولمز إلى هذه النقطة الهامة.

عاد هولمز متأخِّراً دون أن يكون ليستراد برفقته فقد بقي في فندق صغير آخر في البلدة.

جلس هولمز ثمّ بدأ يتحدَّث فقال: من الضّروري جدّاً ألا تمطر قبل أن نعاين مسرح الجريمة. لقد قابلتُ ماكارثي الابن.

- هل من جديد؟

- إطلاقاً.

- ألم يستطع المساعدة بتوضيح أي نقطة؟

- لا شيء... لقد وصلت إلى مرحلة من الشّك أنّه

يعـرف مـن قتل والـده ويحاول التّسـتر عليه. لكنّـي أصبحتُ متأكـداً الآن أنّ الخـبر صعقـه تمامـاً مثلـما حـدث معنـا. إنّـه ليس شاباً شديد الذّكاء.

قلـتُ معقِّبـاً على كلامه: لسـتُ أفهـم لماذا يرفـض الزواج من شابة فاتنة مثل الآنسة تيرنر!

- هنـاك قصّـة مؤلمـة متعلِّقة بهـذا الأمـر. إنّ الشّـاب متيّمٌ بالفتـاة إلى أبعـد درجـة. لكـن قبـل سـنتين تقريبـاً وقبـل أن يعرفهـا معرفـةً جيِّـدة، لأنّهـا كانـت بعيـدةً عنـه تـدرس في مدرسـةٍ داخليَّـةٍ، تزوَّج الأحمق مـن نادلةٍ تعمل في بريسـتول! لم يعلـم أحـد بالأمـر، لكن لـك أن تتصـوّر عذابه لاسـتحالة قيامـه بـما كان يسـعى إليـه بـكل جوارحـه. إلا أنّ الأمـر مستحيلٌ تماماً الآن.

لقـد جـن جنونه عندمـا فاتحـه والـده في آخر لقـاء جمعهما بأمـر الـزّواج من الآنسـة تيرنر. إضافـةً إلى ذلك كان الشّـاب عاجزاً عن إعالة نفسه ووالده في نفس الوقت.

وقـد أمـضى الأيـام الثلاثـة الماضيـة مـع زوجتـه النادلة في بريستول دون علم والده.

أرجـو أن تركِّـز عـلى هـذه النّقطـة لأنّهـا هامّةٌ جـدّاً. لكن بصيـص أمـل لاح في الأفـق عندما علمت الزوجـة النادلة من الصحـف بأمـر الجريمـة واتهامه بهـا وأنه قـد يُشـنق، فكتبت لـه أنّ رابـط الزّواج بينهـما قد تم حلـه، ما أراح الشـاب قليلاً بعد كل المعاناة التي مر بها.

- إذا كان ماكارثي الابن بريئاً، فمن الفاعل إذن؟

- مـن يا تـرى؟ أود أن ألفت انتباهـك إلى نقطتين هامتين. الأولى أنّ القتيـل كان عـلى موعـد مـع شـخصٍ مـا عنـد البحـيرة، وهـو ليـس ابنـه حتـماً كـون الشـاب كان خـارج البلدة، والوالد لم يعرف أنّه قد عاد.

النقطـة الثّانيـة أنّ القتيـل صـاح بكلمـة (كـوي) قبـل أن يعـرف أنّ ابنـه قد عـاد فلا بد إذن أنّ شـخصاً آخـر يعرف أنّ هـذه الكلمـة تُسـتخدم للنداء بـين الابـن وابنـه، أو أنّ الأب كان يسـتخدمها مـع شـخص آخـر إضافـةً لابنـه. عـلى كل حال سوف نبحث بعض الأمور الثّانوية غداً.

حـلَّ الفجـر حاملاً معه سـماء زرقـاء خالية مـن الغيوم أو المطـر. وفي تمـام التاسـعة صباحـاً، وصـل ليسـتراد ودعانـا

لنرافقه إلى مزرعة هايثرلي وبحيرة بوسكومب حيث وقعت الجريمة.

قال ليستراد: هناك خبر هام هذا الصّباح. لقد قيل لي أنّ السيد تيرنر مريضٌ جداً وهو على وشك مفارقة الحياة.

فسأل هولمز مستفسراً: لابد أنّه عجوزٌ مُسن على ما أظن؟

- إنّه في العقد السّابع من العمر، لكن حياته خارج البلاد كانت مُرهقة جدّاً، وقد تراجعت صحته منذ مدة. كما أثّر نوع عمله بشكل سيء على صحته. إنّه صديقٌ قديم لماكارثي ومحسن كبير له، إذ قيل لي أنّه منحه مزرعة هايثرلي دون مقابل.

أجابه هولمز: هذا مثيرٌ للاهتمام فعلاً!

وصلنا إلى مزرعة هايثرلي بعد وقت قصير. كانت المزرعة عبارة عن بناء فسيح جميل المظهر من طابقين.

استقبلتنا الخادمة عند الباب، ونزولاً عند طلب هولمز جاءت لنا بالحذاء الذي كان سيدها يضعه في قدميه وقت حدوث الجريمة، إضافةً إلى حذاءٍ آخر من أحذية ابنه.

وبعد أن تفحّصهما هولمز بعناية، انتقلنا إلى باحة المنزل الخارجيّة وسلكنا من هناك الدرب المؤدي إلى بحيرة بوسكومب. تغيّرت ملامح هولمز كما يحدث في كل مرّة يستشعر فيها ما سيحدث.

وما كان أي ممن عرفوا شارلوك هولمز ذلك المفكر العبقري والمحلل الصّامت في شارع بيكر ليتعرّف إليه وهو في حالته التي يعيشها الآن في هذه اللّحظات.



تقع بحيرة بوسكومب بمحاذاة مزرعة هايثرلي والحديقة الخاصّة للسيد الثّري تيرنر.

قادنا ليستراد إلى المكان الذي حدثت فيه الجريمة حيث وُجدت الجثة. كانت الأرض رطبة لدرجة أنّ الآثار بقيت بارزة.

أمّا هولمز، فقد انصبّ اهتمامه على أمورٍ كثيرةٍ أخرى وجدها على العشب.

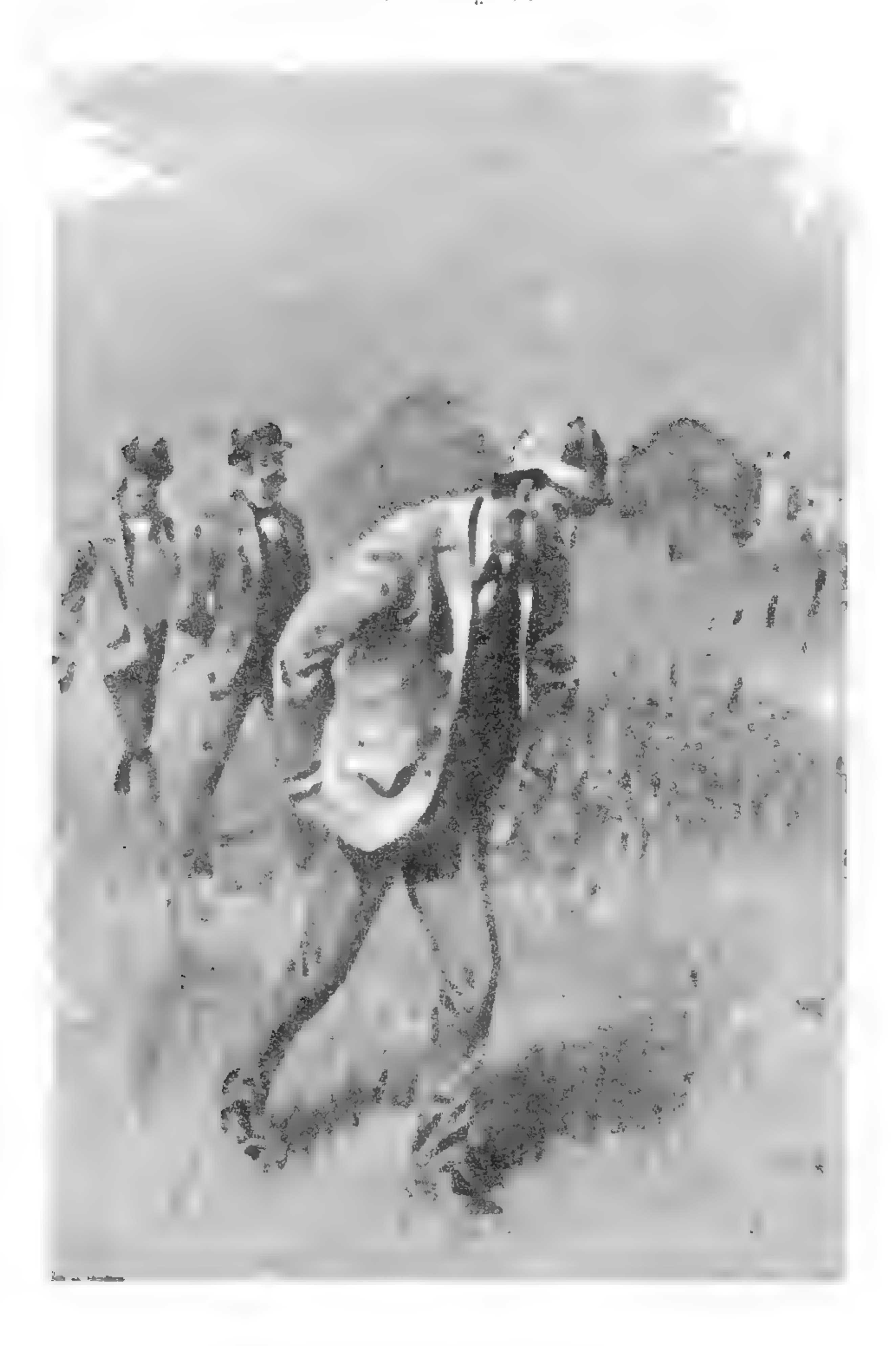
فأخذ يهيم في المكان كالكلب يبحث عن شيءٍ ما، ثمّ التفت إلى زميلنا الذي سأله:

- لماذا ذهبتَ باتجاه ضفة البحيرة؟

- لأمشط المنطقة عليّ أجد سلاحاً أو برهاناً ما، لكن بالله عليك، كيف..؟

صه! صه! لا وقت لدي. قدمك اليسرى في كل مكان.

كان الأمر سيكون أسهل بكثير لو وصلتُ هنا قبل أن يأتي الجميع كقطيع جواميس ويفسدوا كل شيء. هناك ثلاث مسارات لنفس الأقدام أو أقدام نفس الشّخص.



تناول هولمز بعد ذلك عدسة مكبرة وتمدّد على الأرض بعد أن فرش معطفه فوقها ليرى بدقّةٍ أكبر وهو يحدث نفسه أكثر مما يتحدّث معنا.

- هذه أقدام ماكارثي الابن.

مشى مرتين وركض مرة كما توضح الآثار العميقة، وعدم وضوح كعب الحذاء. وهذا يؤكّد روايته.

فقد ركض عندما شاهد والده ملقى على الأرض. وها هي آثار أقدام الوالد وهو يروح ويجيء.

لكن ماهذا هنا؟ إنّه كعب السلاح بينما كان الابن واقفاً يُصغي لوالده.

وما هذا أيضاً؟ آه، لدينا هنا حذاء مربع الطّرف من النّوع غير المألوف كثيراً! يروح ويجيء ثمّ يروح. لكن من أين أتى؟

أخذ هولمز يروح ويجيء متّبعاً المسار نفسه أو مبتعداً عنه إلى أن وصلنا إلى حدود الغابة تحت ظل شجرة زان ضخمة هي الأكبر في الجوار.

انحنى هولمز مرةً جديدة مُصدراً صرخةً خافتةً علامة

الـرضى. بقـي في تلك البقعة فـترةً طويلة يتحقّـق من الأوراق والقضبـان الجافة ويجمع في مغلف ما ظننتـه غباراً، ويتفحّص بواسـطة عدسـته المكبرة ليـس فقط الأرض بل كذلك قشـور الشجرة بقد ما يستطيع من مهارة.

كـما قـام بفحـص دقيـق لحجـر مثلـم كان مرميـاً بـين الطّحالب.

ثـم اتّبـع ممـراً في الغابـة قـاده إلى الطّريـق العـام حيـث اختفت الآثار.



قال بلهجته المعتادة: أعتقد أنّ هذا المنزل الرمادي إلى اليمين هو منزل الحارس.

سأذهب إلى هناك لأكلّم موران، ربما أسجل بعض الملاحظات، ثمّ سأعود لتناول الغداء معاً.

انتظروني في العربة. سأعود حالاً.

وبالفعل، عاد إلى العربة بعد حوالي عشر دقائق، ورجعنا معاً إلى بلدة روس.

في طريق العودة كان هولمز لا يزال يحمل الحجر الذي وجده في الغابة.

أشار إلى الحجر قائلاً: لعلّه يهمك يا ليستراد. إنّه أداة الجريمة.

- لكن ليس عليه أي أثر.

- لا ليس عليه أي أثر بالفعل.

- فما الدليل إذن؟

- بدأ العشب ينمو من تحته. لقد تم وضعه في مكانه منذ أيام قليلة ولا شيء يدل من أين أتى.

كما أنّه يطابق الإصابة وما من أثر لسلاحٍ آخر.

- والقاتل؟

- إنّه شخص طويل القامة، أعسر، ويعرج من رجله اليمنى. كما أنّه ينتعل حذاء صيد له نعل سميك، ويلبس معطفاً رمادياً ويدخّن سيجاراً من النّوع الهندي كما يستعمل حامل سيجار.

إضافةً لذلك فهو يحمل مطواة أو سكين صغير. هناك صفات كثيرة أخرى لكن هذه كافية لمساعدتك في بحثك.

ضحك ليستراد وأجابه: لكني لا زلت أشك في الأمر.

أجاب هولمز بهدوء: سوف نرى. أنت اعمل حسب طريقتك وظنونك الخاصة، وسأعمل أنا وفق طريقتي. سوف أكون منشغلاً بعد ظهر اليوم، وربما أعود إلى لندن في رحلة القطار المسائية.

- أتعود قبل انتهاء القضية؟

- القضية منتهية.

- واللّغز؟

- إنّه لغز منته. لقد تمّ حله.

- من هو القاتل إذن؟

- إنّه الرجل الذي وصفته للتو.

- وماذا عن هويته؟

- ليس من الصعب التّعرف عليه في هذه البلدة الصّغيرة.

هز ليستراد رأسه مكتفياً وأجاب: أنا شخص عملي ولن أجوب البلدة كلها بحثاً عن شخص أعرج وأعسر.

أجاب هولمز بهدوء: حسناً، لقد قمت بما يتوجب عليّ. الوداع الآن، سأكتب لك قبل أن أغادر.

أوصلنا ليستراد إلى الفندق الذي يقيم فيه، وعدنا إلى الفندق حيث كان عشاءنا بانتظارنا.

مكث هولمز صامتاً ومستغرقاً في أفكاره والحزن بادٍ على وجهه كمن وقع بمأزق.

أخيراً قال: استمع إلي جيداً يا واطسون.

اجلس على هذا الكرسي ودعني أقدم لك بعض

النّصائح وأطلب رأيك ببعض الأشياء.

أنا محتار ومهتم جداً بنصيحتك. أشعل سيجاراً ودعني أشرح لك.

- تفضل.

- لقد لفتت انتباهنا فوراً في قضية ماكارثي الابن نقطتين هامتين.

الأولى هي أنّ والده صرخ كوي! على حد قول الابن، قبل أن يراه أو يعرف أنّه عاد للبلدة.

والثّانية هي ذكر والده كلمة (جرذ) مما يعني أنه قال بعض الكلمات قبيل مصرعه لكن الابن لم يفهم منها إلا هذه الكلمة.

- ماذا عن كلمة كوي؟

- من الواضح أنّ الأب لم يستخدمها كي ينادي على ابنه. إضافة لذلك فإنّ كلمة (كوي) كلمة أسترالية محضة يستخدمها الاستراليون فيما بينهم.

ويحتمل جداً أن يكون الشّخص الذي كان الأب على

موعد معه عند بحيرة بوسكومب قد عاش هو الآخر في أستراليا.

- وماذا عن كلمة جرذ (أو Rat تلفظ بالانكليزية رات)؟

عندها تناول شارلوك هولمز ورقة من جيبه وفتحها على الطاولة.

- هذه خريطة مستعمرة فيكتوريا في أستراليا. قام بتغطية جزء منها بيده وقال ماذا تقرأ؟

- رات.

- رفع يده وسأل: والآن؟

- بلارات.

- بالضّبط. هذه هي الكلمة التي تلفّظ بها المغدور والتي لم يسمع الابن سوى آخرها أي رات أو جرذ.

كان الأب يحاول أن يقول لابنه بأنّ قاتله من منطقة بلارات.

- مذهل!

- بل واضح. لقد انتقلنا من الغموض إلى التّحديد وليس التّوضيح: إنّه رجل استرالي من بلارات يلبس معطفاً رمادياً.

- أصبت.

- شخص لديه منزل في المقاطعة نظراً لاستحالة بلوغ البحيرة إلا عبر المزرعة أو العقار. لا يُمكن للغرباء أن يدخلوا المكان.

- صحيح.

- كما أنّ آثار القدم اليمنى أقل وضوحاً من آثار القدم اليسرى ما يعني أنّه أعرج.

- وكيف عرفتَ أنّه أعسر؟

- حتّى أنت فاجأتك طبيعة الإصابة التي أشار إليها تقرير الجراح.

لقد سدد الضّربة إلى الخلف مباشرةً لكن على الجهة اليسرى للرّأس.

هل يمكنه ذلك إذا لم يكن أعسراً؟

لقد كان يقف خلف الشجرة بينما الوالد وابنه يتجادلان.

حتّى أنّه دخّن سيجاراً وجدت رماده وبقاياه على الأرض قرب الشجرة.

بحثتُ بعد ذلك في الجوار فوجدت العقب بين الطحالب حيث أطفأه. كان سيجاراً هندياً ملفوفاً في روتردام.

- وماذا عن حامل السيجار؟

- من الواضح من عقب السيجار أنه لم يكن يضعه في فمه مباشرةً، ما يعني أنّه كان يستعمل حامل سيجار.

فالطّرف مقطوعاً وليس مقضوماً. إلا أنّه لم يقطعه بدقة، فاستنتجت أنّه يحمل معه مطواة غير حادة.

- قلت مبتسماً: لقد وقع هذا الرجل في شباكك ياهولمز. إنّ المذنب هو ....

وفي تلك اللحظة دخل نادل الفندق معلناً وصول زائر قائلاً: السيد جون تيرنر.



دخـل رجـل صاحـب وجـه غريـب ومؤثّـر. كان يبـدو عليـه بوضـوح علامـات الوهـن والتّعـب بسـبب مشـيته البطيئـة العرجـاء وكتفيـه المنحنيـين! أدركتُ عنـد رؤيته على الفور أنّه يعاني من مرضٍ عضال ومزمن.

خاطبـه هولمـز بلطـف قائـلاً: تفضّـل واسـترح عـلى الأريكة. هل وصلتكَ رسالتي؟

- نعـم. لقـد سـلّمني إياهـا الحـارس. قلـت أنّـك تريـد مقابلتي هنا تجنُّباً للفضيحة.

- أعتقـد أنّ النـاس سـيبدؤون بقـول أشـياء سـيئة إذا مـا حضرت أنا إلى المزرعة.

فقـال وهـو ينظـر إلى صديقـي بعينـين مليئتـين باليـأس كمن يعرف جواب سؤاله سلفاً: ماذا تريد مني؟

جـاء جـواب هولمـز ردّاً عـلى نظرتـه أكثـر ممـا هـو عـلى سؤاله: نعم. أعرف كل شيء عن ماكارثي.

أخفـى العجوز وجهـه الباكي بين يدي وقال: فليسـاعدني الـرب! لكنّي لن أرضى أن يصيب الشـاب أي مكروه. أقسـم أنّي سأعترف بالحقيقة لو تمّت إدانته وصدر الحكم ضده.



- يسرني سماع ذلك.

- لكنّك تكلّمت الآن. آه لو لا ابنتي الغالية. سنفطر قلبها إن علمت أنّي موقوف في السجن.

أجاب هولمز مطمئناً: قد لا نضطر إلى ذلك.

- ماذا؟!

- أنا لستُ محقِّقاً رسمياً. لقد طلبت ابنتك حضوري إلى هنا وأنا أعمل لما فيه مصلحتها. لكن يجب إطلاق سراح ماكارثي الابن.

- أنا على وشك الموت وأعاني من مرض السكري منذ سنواتٍ عديدة. الطّبيب يقول أنَّ أيامي معدودة. لكنّي أفضِّل الموت على فراشي لا في زنزانة.

عند ذلك نهض هولمز وجلس إلى الطاولة، ثم تناول قلماً ومجموعة أوراق شارحاً: قل لنا الحقيقة فقط وأنا سأدوِّن الوقائع، ثم تقوم أنت بتوقيع إقرارك أو اعترافك ويشهد واطسون على ذلك.

لن أستخدم هذه الأوراق إلا في الحالة القصوى لإنقاذ حياة ماكارثي الابن. أعدك بأن لا أستعملها إلا هذا

الغرض.

- أنت لم تعرف ذلك الرجل. كان شيطاناً بهيئة إنسان. لقد بقيتُ تحت رحمته لعشرين عاماً قام خلالها بتدمير حياتي. سأروي لك القصة منذ البداية.

- بدء ذلك مطلع الستينيات في المناجم. كنت حينها فتى متهوِّراً ومندفعاً، أي باختصار ما يمكن تسميته هنا قاطع طريق.

كنا مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص نحيا حياة بلا قيود. كان الجميع يعرفني بكنيتي وهو بلاك جاك من بلارات وحتّى اليوم يشار لنا في المستعمرة الأسترالية على أنّنا زمرة بلارات.

في يوم من الأيام جاءت قافلة محمّلة بالذّهب من بلارات إلى ملبورن فكمنّا لها وسطونا عليها. كنا ستة مقابل ستة من حراس قافلة الذّهب.

قُتِل ثلاثة منا في الهجوم، أمّا أنا فقد صوَّبتُ سلاحي باتجاه سائق الحافلة الذي كان ماكارثي بشحمه ولحمه.

كم أتمنّى الآن لو أنّي قتلته حينها لكنّي لم أفعل بالرغم

من عينيه الصّغيرتين الشريرتين الشّاخصتين إلي كمن يريد أن يتذكّر كل تفاصيل وجهي.

وفي النهاية استولينا على الذّهب وأصبحنا أثرياء وعدنا إلى انكلترا دون أن نثير شكوك أحد.

بالنّسبة للوضع هناك في المستعمرة في استراليا، فقد قرّرت الانفصال عن زملائي والبدء بحياة هادئة ومحترمة بعيداً عنهم، فانتقلتُ إلى انكلترا واشتريت هذا العقار الذي صادف أنّه كان معروضاً للبيع.

وباختصار فتحت صفحة جديدة، وحاولتُ جاهداً التّعويض عما مضى. وقد سارت الأمور على أحسن ما يرام إلى أن وقعتُ تحت رحمة ماكارثي.

ذهبت ذات يوم إلى البلدة لأبحث أمر استثمار ما، فالتقيت به في شارع ريغينت وكان بحالةٍ مزرية.

أمسك ذراعي وقال: ها قد التقينا مجدداً يا جاك. سنكون كأسرةٍ واحدة. نحن لسنا إلا شخصين اثنين فقط، أنا وابني وعليك الآن أن تتولّى رعايتنا، وإلا...

تذكّر أنّ انكلترا بلدٌ يحترم القانون ولن يصعب العثور

على شرطي في أي وقت من الأوقات.

وهكـذا حـضر وابنـه إلى المقاطعـة الغربيـة وعاشـا مجانـاً على حسابي وفي أفضل الأراضي التي أملكها.

بعـد ذلـك أخـذت الأمـور تتفاقـم بعـد أن كـبرت ابنتي «أليـس»، لأنّـه أدرك أني أخشـى أن تكتشـف هـي حقيقتـي أكثر ممّا أخشى الشرطة.

كان يحصـل عـلى كل مـا يريـده دون مناقشـة، الأرض، المـال والمنـازل، إلى أن طلـب مؤخراً شـيئاً لا يمكننـي التّخلي عنه. لقد طلب «أليس».

وقـد رفضـتُ ليس لأنّي أرى ابنه الشّـاب شـخصاً سـيئاً، بـل لأنّ دم أبيـه يـسري في عروقـه، فطفـح الكيـل عندهـا وقـررت مقاومتـه، فـما كان منـه إلا أنـه هـددني. لأقـول لـه بـدوري أن يفعـل ما يشـاء. وقررنـا أن نلتقي عنـد البحيرة في منتصف الطريق بين منزلينا كي نناقش الموضوع.

عندمـا وصلـت إلى المـكان، وجدتـه يتحـدّث مـع ابنـه، فدخّنـت سـيجاراً وأنـا أنتظر خلف الشّـجرة حتّـى انتهيا من الكلام.

لكـنَّ توتـري زاد عندمـا سـمعت الحديـث الـذي كانـا يتجادلان بغضب بشأنه.

لقـد كان يحـث ابنه بـل كان يريـد إجباره على الـزواج من ابنتـي سـواءً وافقت هـي أم لا وكأنّها إحدى السّـاقطات على جانب الطّريق.

عندهـا فقـدتُ عقـلي لمجـرّد التّفكـير أنّ أثمـن مـا لـدي سـيصبح في عهـدة هـذا الرجـل. وأدركـتُ أنّ مصـيري سيكون محتوماً.

أنـا الفاعـل، أنـا القاتل يا سـيد هولمـز، ولـو كان لي الخيار بعد أن نعيد الزمن إلى الوراء، لكنت قتلته مجدداً دون تردد.

أجـاب هولمـز فيما الرجـل يوقّع عـلى التّصريح: أنا لسـت مخولاً بمحاكمتك، وأتمنّى أن لا تحتاج إلى الاعتراف أبداً.

- أتمنى ذلك أيضاً يا سيدي. ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

- لا شيء، نظـراً إلى حالتـك الصحيـة. ولا أريد أن أخفي عليـك أنّك سـتمثل أمـام محكمة أسـمى من محاكـم الأرض. لكنّـي سـأحتفظ باعترافـك وفي حـال تمـت إدانـة ماكارثـي الشّاب سأستخدم الاعتراف مرغماً حينها.

وباستثناء ذلك، أعدك بشرفي ألا يرى أحدى هذا الاعتراف، وأن يبقى سراً دفيناً، في حياتك وبعد مماتك.

ودعنا الرجل باحترام قائلاً: الوداع إذن. ثمّ غادر الغرفة ببطء وخطى متثاقلة مترنّحة.



وبعـد دقائـق من الصمت الـذي تلى مغادرته، قـال هولمز: فليسـاعدنا الـرب! لماذا يتلاعـب القدر بهذا المسـكين الأعزل يا ترى؟

بعـد ذلك بفـترة بـرَّأت المحكمـة العليا جيمـس ماكارثي بنـاءً عـلى اعتراضـات قدَّمهـا هولمـز لهيئـة الدفـاع. أمّـا تيرنر الأب، فقـد عـاش سـبعة أشـهر بعـد لقائنـا بـه. وقـد قـضى نحبـه بعـد ذلك ومـن المحتمل جـداً أنّ الشـاب والفتـاة، ابن ماكارثـي وابنـة بلارات سـوف يعيشـان معـاً ويقضيـان حياةً سـعيدة جنبـاً إلى جنـب، بعيـداً عـن الغمامـة السـوداء التـي عكَّرت صفو ماضيهما وماضي والديهما.

• انتهى •